بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠٠٦)

الكتاب الأول "في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي"[١].

[تاريخ الجزائر قبل الإستيلاء العربي]

يتضمن هذا الكتاب الكلام على قدماء الجزائر أهل العصر الحجري، والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها الا العليم الخبير، واستقروا به حتى عرف بهم ونسب إليهم؛ والكلام على الدول التي سادت البربر فيه: وهي: دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الفندال ودولة الروم ويتقدم ذلك كله القول في جغرافية هذا الوطن الطبيعية.

فانحصر هذا الكتاب في سبعة أبواب:

-[الباب الأول في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري.]-

-[الباب الثاني في ذكر البربر وأصولهم وقبائلهم وما يرتبط بحياتهم.]-

-[الباب الثالث في ذكر الفينيقيين وأخبارهم.]-

-[الباب الرابع في ذكر البربر وملوكهم على عهد قرطاجنة ورومة الجمهورية.]-

---

١ الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: كنا أنهينا في المجلس الماضي قراءة المقدمة التي ذكرها مؤلف الكتاب الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ وفي بعض طبعات الكتاب توجد مقدمة لابنه -محمد بن مبارك- مقدمة في نحو عشرين صفحة أو أزيد، وفيها بعض الفوائد والزيادات في ترجمة مؤلف الكتاب بناء على أن هذه التقدمة كانت من ابنه، فذكر أشياء من الزوائد، وبعض الفوائد الفرائد.

ـ[الباب الخامس في ذكر الرومان وأحوالهم مع البربر.]ـ

ـ[الباب السادس في ذكر الفندال ومآل أمرهم.]ـ

ـ[الباب السابع في ذكر الروم ومصير دولتهم.]ـ[١]

---

[١] يعني هذا الكتاب الأول يتضمن هذه الأبواب السبعة، هذه الأجناس تواردت وتناوبت على هذا البلد، ثم بعد ذلك الكتاب الثاني الذي سيشمل الكلام على قدوم العرب إلى هذه الأرض، الكتاب الثاني في العصر العربي يأتي في صفحة ٣٢٩، قدّم هذا الكتاب بمقدمة أو باب أول استوعب فيها في الجملة جغرافية الجزائر الطبيعية، يعني تكلم عليها من الناحية الجغرافية، الكلام على موقعها، وحدودها، وتسميتها والكلام على مناخها، وكذلك ما فيها من التضاريس وما فيها من الموارد الطبيعية كما تسمى.

فنذكر ما يتعلق بتسميتها والأمور الأخرى لعلنا نشير إليها اختصارا لننتقل إلى الباب الثاني.

[جغرافية الجزائر الطبيعية]

١ - تمهيد

(الجزائر) اسم مدينة بنيت مكان (جزائر بني مَزْغَنَة) وكانت قد عرفت في التاريخ باسم اقسيوم (ICOSIUM)، عندما كانت على عهد الرومان بلدة صغيرة، وعندما جدد بناءها بلقين بن زيري[١] لم يكن يتوقع أنها ستصبح عاصمة لدولة مترامية الأطراف، ولم يخطر بباله أن تعطي اسمها لكامل البلاد.

تحتل الجزائر الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي أو المغرب العربي، وهي منطقة كان قدماء اليونان قد أطلقوا عليها اسم ليبيا، ثم تطورت التسمية في القديم على يد الجغرافيين اليونانيين واللاتينيين كما يلي[٢]:

١ - مصيصيليا (MASSESSYLIE) وهو عبارة عن سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتي الجزائر ووهران إلى وادي ملوية غربا.

٢ - مصيليا (MASSILIE) وهو باقي عمالة قسنطينة وغرب عمالة تونس إلى طبرقة ثم صارت مصيصيليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا.

٣ - جيتولية (GETULIE) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا ولما جاء العرب أطلقوا اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلانتيكي غربا، والبحر الرومي شمالا والصحراء الكبرى جنوبا.

---

[١] هذا سيأتي في قبائل البربر لاحقا، هو من صنهاجة.

[٢] ذكروا لها أسماء وجعلوها على ثلاثة أقسام.

وانما سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب[1]. ثم قسم العرب المغرب إلى أدنى[2] وأوسط واقصى؛ وذلك بالنسبة لشرقهم.

١ - المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا و بجاية غربا.

٢ - المغرب الأوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا.

٣ - المغرب الأقصى هو ما بين وادي ملوية شرقا والبحر المحيط غربا[3].

وأطلقوا اسم قسطيلية على ما يعرف اليوم باسم الجريد وهو جزء من جيتولية حسب اصطلاح من قبلهم. فلعل لفظ قسطيلية مأخوذ من جيتولية بضرب من التغيير وقد كان الرومان يسمون عمالة تونس أفريقية "**AFRIQUE**" ولما جاء العرب استعملوا هذا الاسم بازاء معان ثلاث[4]:

قال صاحب المؤنس: تطلق أفريقية على القيروان خاصة[5]؛ وعلى ما بين وادي الطين وبلدة باجة[6]؛ وعلى المغرب كله.

ولما قسم المتأخرون الكرة الأرضية الى قارات خمس أطلقوا اسم إفريقية على القارة الواقعة ما بين المحيط الاطلانتيكي غربا؛ والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا؛ والبحر الأبيض شمالا؛ وملتقى المحيطين جنوبا. وإذ ذاك أطلقوا على المغرب اسم إفريقية الشمالية.

إن المغرب بجميع اقسامه- او أفريقية الشمالية- منفصل عن بقية إفريقية بصحار يتعذر سلوك بعضها ويتعسر سلوك بعض آخر؛ لذلك ضعفت الروابط بينه وبين أقسام بقية القارة حتى كاد لا يعد منها؛

---

[1] هذا مما يحتاج إلى أن يضبط، سمي المغرب العربي لأن العرب لما قدموا إلى هذه الأرض أطلقوا عليه تسمية نسبة إلى أرضهم، فهذه الأرض بالنسبة إلى هذه الأرض هي في ناحية الغرب، فسمي المغرب العربي.

[2] أي أدنى إليهم، وأوسط بالنسبة لهم، وأقصى.

[3] فالمغرب العربي كله فيه المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى.

[4] يعني لفظ إفريقيا يطلق على ثلاث معان.

[5] يعني تونس.

[6] بجاية.

وهو يكوّن وحدة جغرافية وجنسية ودينية وتاريخية[1]: فإن هواه واحد وطبيعة أرضه واحدة؛ وسكانه من قديم الجنس البربري؛ ودياناته- قديما- الوثنية، ثم جاءت المسيحية فكادت تعم عليه ثم جاء الاسلام فلم يدع قلبا الا فتحه واستقر به الاستقرار النهائي؛ والأمم التي فتحته قبل الاسلام وبعده كان فتحها متحدا وإن اختلفت جهته؛ فالرومان- مثلا- لكونهم بحريين جاءوه من الجهة الشمالية؛ والعرب لكونهم أهل صحار جاءوه من الجهة الجنوبية[2].

---

[1] يعني إفريقية الشمالية.

[2] يعني أول ما دخل المسلمون على تلك الأراضي كما هو معلوم وسيأتي إن شاء الله ﷻ.

وهذا الفصل في الحقيقة غالبه ذكره مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مختصرا لكن قد فصّل فيه وزيد وتوسعوا في ذكره، ومعظم المعلومات المذكورة هنا مأخوذة من كتاب آخر فليست هي من جمع مؤلف الكتاب بل زيد عليه، الحاصل أنه ذكر الحبوب لهذا البلد وهي معروفة، وذكر مناخه أي الجو لهذا البلد من حيث الحرارة والرطوبة والثلوج والأمطار، وذكر تضاريسه ما يوجد فيه من جبال، وأحواض، وأودية، وأنهار وسهول، ونجود -أي مرتفعات- وهضاب، وذكر جميع أنواعها، مما يدل على أن له اطلاع في كل ذلك.

وذكر أيضا بعد ذلك ما يتعلق بالغطاء النباتي، وأنواع الأقاليم، وذكر أيضا ما يتعلق باقتصاد البلد، وما فيه من ثروات نباتية وغابية وكذلك ثروات بحرية، وذكر أيضا ما فيه من الثروة الحيوانية، وكذلك أنهى ذلك بذكر الثروة المعدنية، وكيف هي تتوزع على أرض هذا البلد، وهذه تحتاج إلى قراءة، قد يقرأها كل واحد على انفراد، وأظن أنها لا تحتاج إلى كثير تعليق، ومما يدل على أن هذا الفصل قد زيد فيه على ما كتب المؤلف ما جاء في آخره لما قال (قد حددت نصوص تشريعية لاحقة صدرت بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٧١م) يعني هذا بعد وفاة المؤلف بقريب من ثلاثين سنة.

فالحاصل أن هذه تقدمة فيها الإشارة إلى جغرافيا البلد وما فيها من ثروات ومن خيرات أنعم الله ﷻ بها على هذا البلد، وهي خيرات في الحقيقة كثيرة نحمد الله تعالى على أن منّ بها علينا ولو أنها وجدت من يستمرها حق استثمارها.

وبعض إخواننا الأفاضل له أبيات في ذكر شيء من المدح لهذا البلد وإن كان ليست عندي كل الأبيات، يظهر أنها طويلة، لكن أرسل إليّ بعضها، وهذا من نظم أحد الإخوة الأفاضل من البلد، فمما قاله:

الجزائر والتاريخُ ينبئكُم *** كانت بكلِّ حُليّ العزّ تزدانُ
كانت مُكرمة في الخير ناعمةً *** يسعى إلى خيرها رَجْلٌ وركبانُ
فاسأل رُباها وسل إن شئت ساحلَها *** واسأل قصورا بها قد عَزّ سلطانُ
واسأل مساجدها واسأل معاهدها *** واسأل عن العلم تنبيكم تلمسانُ
واسأل بجاية واسأل كل زاوية *** فيها يلقن للولدان قرآن
قد زادها ربُّها حسنا فكان لها *** في كل ناحية روضٌ وبستان =

[الباب الثاني في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري[1]]

تمهيد

كان الإنسان في ابتداء وجوده وأول عهده بهذه الحياة لا يعرف الكتابة ولا الصنائع والحرف، ولا يهتدي إلى ما أودع الله في الارض من المنافع، فجهل الفلاحة والغراسة واستخراج المعادن.

إنما عرف الحجارة فاستخدمها لصيد الوحوش لقوته، أو رد عاديتها عنه، ثم في دفاع المعتدين عليه من بني جنسه، أو الهجوم عليهم[2].

ولبث على ذلك دهورا طوالا- ولكن مع ترقٍ في صناعتها وتفنن في وجوه استخدامها- حتى اخترع الكتابة وعرف المعادن ودخل حظيرة الحياة النظامية[3].

= يعني كثيرة الخيرات، قال:

إذا ترنّم مَقْنِيـنٌ بأيْكَتِه *** تمايلت طربًا بالثّمر أفنانُ

تخالُ مِن تحتُ أنَّ الشمس قد وجبت *** وأنّ قطرَ النّدى إذ سالَ شُهبانُ

قد أسدَلت رَفْرَفًا في ظلّه نَهَرٌ *** يجري فراتٌ وحول النّهر رَيحانُ

إلى آخر ما قال، هذا الذي وصلني منه فقط والحاصل أن الله تعالى قد من على هذا البلد بخيرات كثيرة، نسأل الله تبارك وتعالى أن تكون نعم خير يستفاد وينتفع منها أهل البلد. صاحب الأبيات اسمه محمد بوسلامة من الجزائر، رجل فاضل وعنده كثير الدروس المسجلة له.

[1] سماه أهل العصر الحجري لأن غالب الأدوات التي كانوا يستعملونها إنما هي من الحجر.

[2] يعني كانت غالب الآلات التي تستعمل هي من الحجارة والحقيقة أن الزمن الأول لم يأتنا منه كبير وكثير معلومات ذُكرت لنا بما يُتيقّن منه، إلا ما جاء في بعض الآيات في كتاب الله ﷻ وكذلك ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة ومنها خلقة آدم عليه السلام وأن الله علمه الأسماء كلها إلى غير ذلك.

[3] ولاشك ولا ريب أن الإنسان من أول نزوله وأول وجوده وهو آدم عليه السلام والله ﷻ أنزل عليه شريعة كانوا يتعبدون الله بها، كانوا على التوحيد، وكانوا على شريعة يدينون الله ﷻ بها، فعلى هذا انتظام حياتهم تدل عليه الآيات {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}البقرة٣١، وأن الله تعالى أرسله نبيا، وكانت أمته تدين بدين، فكانت البشرية من وجود آدم إلى نوح كلها عشرة قرون على التوحيد، وكانوا يدينون لله ﷻ، كانوا على دين وشريعة يتعبدون الله ﷻ بها.

ويعرف ذلك الدهر الطويل بالعصر الحجري لأن مدنيته مشتقة من الحجارة[١]. ويدعى أيضا "ما قبل التاريخ"[٢] لان الكتابة لم توجد بعد حتى يدون ما على عهده من الحوادث والوقائع وسير العمران والحضارة فالمؤرخ لا يستطيع أن يتحدث عن أهل هذا العصر حديثا مفصلا مستمدا من النقل[٣]، فكان هذا العصر جديرا بأن يدعى ما قبل التاريخ[٤].

إن المؤرخين- وإن لم يكن لهم نقل عن أهل هذا العصر- لم يعدموا سبيلا للبحث عنه فقد وجدوا من الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الأرض أساسا للكلام عن حياة الإنسان الأول. وأنار أمامهم مذهب النشوء والارتقاء دياجي هذا العصر الحالكة[٥].

إن مذهب النشوء والارتقاء قديم ليس من بنات أفكار المتأخرين. والناس إزاءه فريقان: مثبت له معجب به، ونافٍ له نافر منه[٦].

والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤيده القرآن الكريم أن المذهب نفسه- بصرف النظر عن بعض الجزئيات- معقول مقبول.

---

[١] المقصود أكثر ما كانوا يستعملونه الحجارة

[٢] يعني إذا كنا قصدنا ما قبل تدوين التاريخ هذا محتمل، أما أن يقال: ما قبل التاريخ أي أنه ليس له تاريخ فهذا لا، لأن الله ﷻ قص علينا من خبر آدم وأبنائه وذريته، وجاء في السنة أيضا الكثير من الأحاديث في ذلك.

[٣] لاشك، لأن النقل عن السنوات البعيدة يحتاج إلى نقل موثوق، وإلى إسناد ثابت، حتى تقول: إنهم كانوا على هيئة كذا وهيئة كذا، وهذا لا يمكن إلا بإسناد متسلسل، أو بوحي، فالذي جاءنا من الوحي هو ما عندنا خبره، قصة خلق آدم ﷺ وإنزاله إلى الأرض، وكانوا على التوحيد، وكانوا يتعبدون الله ﷷ على شريعة، وما وقع بين ابني آدم قتل أحدهما الآخر، إلى آخر ما ورد في ذلك.

[٤] عني التدوين، وإلا فإنه عندنا في الكتاب والسنة شيء مما يتعلق بذلك.

[٥] الدياجي يعني الظلمة.

[٦] مذهب النشوء والارتقاء، يشير به إلى النظرية المعروفة التي هي نظرية التطور، نظرية روبرت شلز داروين، هذا من علماء الأحياء بريطاني الأصل، كان نصرانيا ثم صار ملحدا. نتم كلامه ثم نعلق على هذه القضية.

أما الضرورة فيكفي لاستحضارها نظرة في النبات والحيوان والاجتماع والعمران: فإنك ترى النبات كيف يبدو عقب ماء المطر أو غيره ثم يأخذ في الرقي حتى يبلغ شبابه المقدر له، وترى الحيوان يكون نطفة ثم يترقي حتى يوضع ويأخذ في النمو حتى يبلغ أشده، وترى الرجل يؤسس البيت أو الملك ثم يأخذ ذلك التأسيس في الرقي حتى ينال الشرف ويحوز السيادة وينتهي الى درجة من العظمة. ثم ينشأ غيره ويزاحمه ويترق على حساب انحطاط الأول حتى يضمحل ويحل الثاني محله. وهكذا الشأن دواليك في كل زمان ومكان، وترى مثل ذلك في العمران أيضا[1].

وأما القرآن فقد قال تعالى- في شأن النبات-: {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}، وقال في شأن الحيوان-: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}، وقال تعالى في شأن الاجتماع- ومثله العمران-: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}.

وإذا ثبت لديك أن الذهب نفسه لا مغمز فيه فلا يضيقن صدرك لبعض الجزئيات التي يقصر بعض الماديين عقلاء البشر على قبولها ويحاولون بها هدم الأديان- مثل ترقي القرد الى نوع الإنسان- فإن تلك الجزئيات لم تزل وهما ولن تزال خيالا فكيف يصح إلحاقها بذلك المذهب الصحيح؟

وزبدة القول أن الضرورة والدين متفقان على إثبات النشوء والارتقاء في النوع الواحد: أما الارتقاء من نوع الى آخر فأقرب من تحقيقه الجمع بين النقيضين[2].

---

[1] هذا الواقع أو الضرورة، يقصد أن هذا موجود ونراه، نرمي حبة الزرع فينزل عليها المطر، فترتقي فتصير نبتة وتنبت وترق، وهكذا الإنسان يبني بيتا ثم يسويه ويجعل ما هو أرفع منه، وكذلك يمتلك الرجل ملكا، ويؤسس فوقه ما هو أرفع ويأتي الآخر فيبني زيادة على ما بناه الأول، ويقع الترقّي، ومثل ذلك العمران.

[2] الحقيقة الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه هذا الموجز دقق النظرة في هذه النظرية، نظرية هذا الرجل، الرجل هو روبرت شلز داروين نصراني بريطاني ولد سنة ١٨٠٧م من عائلة ثرية، وعائلة طب، فكان أبوه طبيبا وكذا جده، وأرادوا حمله على الطب، وذكر أنه رغب عنه ولم يواصل فيه، فحوله أبوه إلى دراسة دينية، فأخذ الشهادة في الدراسة الدينية في علم اللاهوت، ولكن كان له رغبة في الاستكشاف والبحث، فوقع أن خرج في رحلة بدءً من سنة -أظن-١٨٣١م إلى

١٨٣٦م أو ١٨٣٧م رحلة دامت في سفينة من السفن الكبار بحكم أن عائلته كانت ثرية، فدار الكثير من الأمر، دامت هذه الرحلة خمس سنوات، نحو ثلاث سنوات وزيادة في البر، وسنة ونصف أو أكثر أو أقل قليلا في البحر، وكان له اهتمام بعلم الأحياء البيولوجيا كما يسمى، فكان يتتبع الاستشكاف في هذا الباب.

بعد رجوعه انقدح في ذهنه هذه النظرية، وسماها "نظرية أصل الأنواع" والحقيقة في ترجمة كتابه من الإنجليزية إلى العربية بعضهم ترجمه بكتاب "أصل الأنواع" نظرية النشوء والارتقاء، هو لم يتكلم عن النشأة والخلقة، وإنما تكلم على أصل الأنواع الموجودة من المخلوقات في الأرض، وكتابه هذا لم يذكر فيه النظرية بالتفصيل، وإنما ذكر تاريخها، له كتاب آخر وهو "تطور الإنسان" هذا الذي ذكر فيه نظرية كون الإنسان تطور من قردة على مذهبه، هذا هو أصل هذه النظرية "أصل الأنواع" هو يقول: إن هذه المخلوقات كلها ترجع إلى أصل واحد، أو أصول قليلة جدا، وبمرور الزمن يقع التطور فيها، هذا التطور مبني على قضية وقانون انتخاب الطبيعة، يعني أن الطبيعة هي التي تنتخب فعندهم مبدأ البقاء للأصلح، والتطور ... ونحو ذلك، هذا هو أصل هذه النظرية، بداية كانت هكذا ثم تطورت الآن، لأن الآن في نظرية داروين، وفيه نظرية التطور، وفيه تطوير التطور! نظرية داروين التطورية الجديدة.

وهو في كتابه الأول أصل الأنواع لم يتعرض إلى النشوء، ولم يتعرض إلى كون الإنسان منحدر من قردة، وإنما هو في الكتاب الثاني أصل الإنسان (descendant of human) يعني من أين انحدر الإنسان، هذا الذي تكلم فيه على كون الإنسان منحدر من قردة، حسب ما ظهر أو اكتشف هو وتبين له، هذه هي نظرية التطور.

والإشكال أن هذه النظرية لما ذكرها لم يكن ملحدا، كان نصرانيا، وإلحاده كان بسبب مسألة أخرى وقعت له، وهي الخلاف عنده بين الخير والشر، مرضت إحدى بناته بالحمى، وماتت على إثر ذلك فاختلجت في نفسه هذه القضية التي اختلط عليه أمرها من الخير والشر، وانتهى أمره إلى الإلحاد، فصار ملحدا ومات ملحدا، وإلا فكتابه أصل الأنواع ذكر في طبعته الثانية في آخر الكتاب إلى أن هذا الجمال والجلال لهذه المكونات الموجودة هي من إيجاد الخالق أو نحو ذلك، ذكر هذا المعنى، لكن هو ألحد بعد ذلك.

هذه النظرية مرجعها كما ذكرت إلى أن أصل المخلوقات ترجع إلى أصل واحد، أو أصول قليلة معدودة، وبفعل التطور، والانتخاب الطبيعي تتطور هذه الكائنات من شيء إلى شيء فانتهت خلقة الإنسان إلى ما هو عليه الآن، وكذلك سائر المخلوقات، فهذا هو أصل النظرية، والنظرية لاشك أنها خطيرة جدا لأنها سوغت لكثير من الناس الإلحاد، فوجد التسويغ لأسئلته حتى قال بعضهم ممن يتبنى هذه النظرية: لولا هذا الكتاب -نظرية داروين- لكان من أقوى المتدينين، فهذه النظرية كأنها بينت له الجواب عن بعض الأسئلة، فكل شيء يحتمل أنه تطور، فإذن أصل خلقة الإنسان خلية جاءت من كوكب من الكواكب وبفعل الطبيعة صارت تتطور وتتطور وتكون من وراء ذلك هذه المخلوقات، ولاشك أن هذه النظرية مصادمة -فيما يتعلق بخلقة الإنسان- للقرآن الكريم، لكن كما ذكر المؤلف الناس إزاءه مثبت له

معجب به، وغال في ذلك ينتهي به الأمر إلى الإلحاد، وعلى فكرة -من باب الفائدة- الغربيون ليس كل من يعتقد هذه النظرية هو ملحد، بل فيهم نصارى، فيهم متدينون على الدين النصراني ويناقشون ويناظرون الملاحدة وكل من الطرفين تجده يؤيد هذه النظرية، يسمون بـ"التطوريين" فتجد هذا المتدين بالدين النصراني، ويثبت وجود الإله وطرف آخر تطوري ولكنه عياذا بالله ملحد، فأصل النظرية هذه هل فيها تلازم بين النظرية والإلحاد؟ لا يلزم لأنه تنزّلا إذا قلنا هذه الخلية جاءت من كوكب من الكواكب، لكن من الذي خلق الخلية؟ وهذه الكواكب، لو قلنا تسليما بصحة ما يقال في هذه النظرية، أصلا الخلية معقدة تعقيدا شديدا، دراسة الخلية أصلا معقدة، فمن الذي خلقها على هذا التعقيد؟ ومن الذي خلق وجودها، من الذي خلق هذه الكواكب، لا شك ولا ريب أنه الله ﷻ، ولهذا فخطورة هذه النظرية فيما ذكرت لكم هو من هذا الباب، الذي صار يسوغ لكثير من الملاحدة هذا الكلام الذي يقولونه يبررون به التساؤلات التي ترد عليهم، فيقولون هذا من جراء التطور وانتخاب الطبيعة، وكذلك ما حدث بعد ذلك مما يسمى بالشفرة الوراثية، وغيرها.

قال (**وناف له نافر منه**) يعني هناك طرف آخر قد أنكره كلية في حين أن الارتقاء يعني فيه جانب قد يسلّم، وهذا الذي سيأتي ذكره، وضرب لذلك أمثلة، لكن الحقيقة النظرية نفسها لا تسلّم وفيها جوانب تنتقد انتقادا شديدا، ومن ذلك قولهم كون الإنسان متحول من قرد على أساس هذه النظرية الباطلة وهي الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، والنشوء والارتقاء، والمطابقة، وعامل الوراث وغير ذلك، فما يتعلق بالنظرية هذه في حق الإنسان هذا قول باطل، أما النظرية من حيث الجملة، فوجود الارتقاء هذا يعني فيه ما يدل عليه، الله ﷻ خلق ابن آدم أول ما خلقه خلية وهي نطفة الرجل، وماء المرأة ثم يكون حيوانا منويا، ذكرا وأنثى، ثم يتلاقح كما هي سنة الله ﷻ في اللقاح، ويتدرج ويتناوب من طور إلى طور كما ذكر المؤلف في الآية {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً} إلى آخره، وكما جاء في حديث ابن مسعود (إنَّ أحدَكُم يُجمَعُ خلقُهُ في بطنِ أمِّهِ أربعينَ يومًا ثمَّ يَكونُ في ذلك عَلقةً مثلَ ذلِكَ ، ثمَّ يَكونُ مضغةً مثلَ ذلِكَ) [رواه مسلم 2643]، وسئل النبي ﷺ بما يشبه الولد الأب أو الأم فقال ﷺ (إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد له، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولد) [نحوه أخرجه أحمد(2471) وغيره] وهذا فيه إشارة إلى عامل الوراثة، وكذلك بذرة التمرة تجعلها في الأرض وتنزل عليها الأمطار فيتدرج نباتها إلى أن تصير نخلة باسقة في السماء، هذه سنة الله ﷻ في السماء في الكون، سنته تعالى في انتقال الأصل إلى فرعة ثابتة كما ذكرنا، هذه من سنن الله ﷻ ونحن نفسرها بأنها سنن الله ﷻ في خلقه، وهي من تقديره وقضائه وخاضعة لإرادته ومشيئته ﷻ، ولذلك يحدث الآيات البينات والمعجزات مما يكون خارقا للعادة، خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق عيسى من أم دون أب، قال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }آل عمران٥٩، وتكلم عيسى في المهد أيضا صغيرا ... هذه مما جرت على خلاف السنن، وإنما جرت بقضاء وتقدير الله ﷻ فالله ﷻ سن سننا في الكون تسير عليها المخلوقات، ولكن بتقديره وقضائه قد يأتي ما يخالف تلك السنن، خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق عيسى من أم دون أب، وتكلم عيسى في المهد، وألقي إبراهيم في النار فلم تحرقه ... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

والحاصل أن هذه هي النظرية كما ذكرت يستعملها الملاحدة لتبرير كفرهم وإلحادهم عياذا بالله تعالى، والحقيقة أن الكون خلقه الله ﷻ على سنن وقد قال ﷻ {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }فاطر٤٣، وأول الخليقة آدم خلقه لله ﷻ من تراب، ونفخ فيه من روحه وخلقه بيده، قال له كن فكان كما أمر الله وكما قضى وقدر. وهذه النظرية من الأمور التي يمكن أن تناقش قولهم أن الأشياء ارتقت من حالة إلى أخرى، فيجاب عليهم: بعض المخلوقات كالإبل والبقر والغنم، هذه من أي شيء ترقت؟ هذه البهائم الذي تمشي على أربع، عن أي شيء ترقت، وقل مثل ذلك في الخيل والبغال والأسود والنمر، من أي شيء ترقت.

ثانية قد مضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترق إلى ما هو أكمل منها، إذ الكمال لا حد له! فبقي الفرس فرسا، والكلب كلبا، والإنسان إنسانا! منتهيا كل منهما إلى ما عليه الآن، وهذا منذ ملايين السنين، فلماذا لم يكن هذا الارتقاء إلى ما هو أكثر؟

وكذلك يعترض عليهم: ما دام لم يبق القرد الأول وانقرض الحيوان الواسطة الذي ترقى من القرد، فلو كانت نظرية الارتقاء صحيحة والانتخاب الطبيعي مطردة لانقرض القرد الأول وبقي الحيوان الواسطة الذي ترقى عن الأول لأنه أكمل منه وأصلح، والنظرية تقول: البقاء للأصلح.

هذه بعض الانتقادات لهذه النظرية وهناك من انتقدها من أوجه كثيرة ومنها ما هو بدء الخلق، ثانيا هذا الانتقاء الذي فيه تقعيد من أعجب ما يكون كيف يقال إنه يكون عشوائيا؟ يعني بالصدفة من غير إحكام خالق ﷻ، وهذا من أدلة وجود الله ﷻ ألا وهو الإتقان الموجود في الكون، هذا الكون على ما فيه من المخلوقات، ومن تدقيق وترتيب لو أنه تغير فيه شيء لتغيرت كل الموازين، هذا الإتقان وهذه الرعاية والعناية هي من خالق ﷻ ، فإذن يقال لهم: هذا الانتخاب وهذا التطور هل يحتمل أن يكون عشوائيا بالصدفة من غير إيجاد خالق سبحانه وتعالى هذا لا يقوله عاقل، يستحيل أنك تأخذ شيئا وترميه بالصدفة فيطلع شيئا متقنا، يعني تأخذ كفًّا من تراب وترميه، فيطلع لك قصرا محدد المعالم، مستحيل، هل فيه من يعقل هذا؟! تأخذ كفا من تراب وترميه فترسم لك منزلا محدد المدخل والمخرج والأطباق يمكن؟ قد نقول يمكن المرة الأولى! ثم الثانية وترميها فنفس الشيء تأتي على نفس الخلقة، والثالثة، والمائة .. إذا رأيت أحدا يفعل مثل هذا، هل يمكن أن تصدق أن هذا وقع عشوائيا؟ وبالصدفة ومن غير ترتيب؟ هذا بعيد جدا، هذه مخلوقات الله ﷻ دائما تأتي على هذه الصفة التي هي هي، ونعرفها فهذا مما يبعد أن يكون هذا الأمر وهذه القضية عشوائية، هذا مستحيل.

ثم في هذا التطور أين الواسطة التي بين أول النشأة وآخرها؟ ثم ما انتهت إليه لماذا لم تزد تطورا إلى حدٍّ أعلى والكمال لا حد له؟ فالحاصل أن المقصود من هذه النظرية هو هذا، بحكم كون المؤلف ذكرها.

ولا معارضة بين دعوى أن إنسان العصر الحجري كان جاهلا إلى تلك الدرجة، وما اخبر به الكتاب الحاكيم من ان الله علم آدم الاسماء كلها لأنه لم يخبرنا انه علم علمه لأولاده بل فيه ما يرشدنا إلى أن

والذي ندين الله ﷻ به أن الله تبارك وتعالى هو الخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق جميع المخلوقات، هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، خلق آدم أول مخلوق من البشر، وخلقه من طين ونفخ فيه من روحه، وخلقه بيده، وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلق السماوات والأرض وأتقن خلقة مخلوقاته ﷻ وخلق النبات وخلق الحيوان، وجعل في الجنس الواحد أطوارا يرتقي فيها من حال إلى حال، وذلك من سنة الله في الكون ومن تقدير الله ﷻ في هذا الكون فهو الذي خلق، وهو الذي قضى، وهو الذي قدر ﷻ.
أما ما يعتقده الملاحدة من هذا الاعتقاد الساذج وهو أن أصل الإنسان من قردة، ثم وقع بعد ذلك الارتقاء والنمو إلى أن صار إنسانا سويا، هذا إنما يريدون به تبرير أسئلتهم التي لم يجدوا لها جوابا بسبب كفرهم، وإلحادهم بالله ﷻ وهذه النظرية في الحقيقة لها شيوع وذيوع عجيب وهائل في الجامعات العالمية، فما منهم إلا ويعظم هذه النظرية سواء كان من الملاحدة أو كان ممن يدين بالدين، حتى أن بعض الصينيين في محاضرة حاضرها في أرض أمريكا أشار إلى انتقاد هذه النظرية، فرأى أن الجلوس تغير حالهم وهم لا يقبلون هذا، فقال لهم: الفرق بين الصين وأمريكا أن في بلدنا ننتقد نظرية التطور، ولا ننتقد الحكومة، وعندكم في أمريكا يمكن أن تنتقد الحكومة ولكن لا تنتقد هذه النظرية.

على كل هذه خلاصة ما يمكن أن يذكر حول هذا، وخلاصة ما يمكن أن تتسلح به قد ذكرته، وفيه بعض المواقع التي دخلت على ضعاف القلوب من المسلمين، وزعزعت إيمانهم عياذا بالله تعالى، فبعضهم وقع في الشك والريب والتردد، ومنهم من صار إلى هذا المذهب الباطل أي إنكار وجود الله تعالى عياذا بالله، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون على حذر، ولا يدخل لهذه المواقع، ويحذر في متابعته لأولاده أن يدخلوا في هذه المواقع الفاسدة، فيزعزع على أبنائه عقائدهم، خاصة مع ضعف التشبع بعلم الشريعة وبدين الله تبارك وتعالى، فينبغي التنبه لهذا.

فإذن كلام المؤلف في قوله أن الضرورة والقرآن يشهدان لهذه النظرية فالمقصود هو ما ذكرته أي ارتقاء الجنس الواحد، مثل بذرة تضعها في الأرض ينزل عليها المطر، تبدأ تخرج وتجذر في الأرض بجذور تظهر ساقها، وترتفع وتصير جذعا وأغصانا، وأوراقا، وأزهار وورود، وثمار ... وهكذا، لكن هذا على وفق سنة الله ﷻ وعلى قانون محكم ليست عشوائية أو بالصدفة كما يقول أولئك.

ثم رد عليهم في قولهم ترقي القرد إلى الإنسان، قال هذا من الخيال فلا يصح أن يلحق بالمذهب الصحيح، وتحقيقه قال كالجمع بين النقيضين.

ذلك خصوصية لآدم إذ ذكر قصة ابنى آدم- وهما لصلبه في رأي بعض المفسرين[1]- وعدم اهتداء القاتل لدفن المقتول[2]. وعلى تقدير أن يكون علم أولاده فان كرور الايام وانتقال البشر من وطن الى آخر مما ينسي ذلك العلم ويذهب به. بل قد تكون الأمة العالمة في مكانها لم تبرحه وتذهب الأيام والليالي بعلمها حتى يظن الجاهل بتاريخها أن لا سلف لها في العلم. والشواهد على ذلك لا تحصى[3].

---

[1] يعني قوله تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ}المائدة٢٧ هل هما أبناؤه من صلبه هو أو أبناء أبناء الأبناء وما يندرج تحت؟ أكثر المفسرين يقولون الآية على ظاهرها، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ} أي من صلبه.

[2] يعني ما كانوا يعرفون هذا أول ما وقع عندهم، فهذا المقتول ما الذي يفعل به؟ حتى رأى الغراب يدفن الغراب فاهتدى إلى الفعل.

[3] يقول كوننا وصفنا الزمن الأول بأنه لا يعرف الكتابة ونحوها هذا لا يتعارض مع قول ربنا {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا}البقرة٣١، لأن هذا من خصوصية آدم، ولا يوجد في القرآن ما يدل على أن آدم علم أولاده، بدليل قصة القاتل والمقتول، وعلى فرض على أن آدم علّم أولاده، فلا يبعد أن انتقالهم يزول به العلم، ولو بقوا في نفس الأرض ولكن بمرور الأيام قد ينسى العلم، وينسى اللاحقون ما كان عليه السابقون من العلم.

[أصل قدماء الجزائر]

دل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على ان البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام[1]، وأنه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام[2].

[1] وهذا تُرد به الدعوى هذه -النظرية التي يقول بها هؤلاء-

[2] فأصل الإنسان من نسل آدم، أول ما خلق الله آدم {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة٣٠، فخلق الله آدم، وخلق بعد ذلك من ضلع في صدره الضلع الأعوج من الجهة اليسرى حواء، فأغفى آدم إغفاءة، فلما أفاق فإذا بحواء أمامه، ثم كان بعد ذلك التزاوج بينهما، وبدأت الخليقة من ذلك، فكانت حواء تنجب في كل حمل رجلا وأنثى، والبطن الذي بعد رجلا وأنثى، فذكر البطن الأول يحل له أن يتزوج بأنثى البطن الثاني، وأنثى البطن الأول تحل لذكر البطن الثاني، فيتناسلون ويتزاوجون، ومن ثمة نشأت الخليقة.

وخلق الله آدم من جميع الأرض قبضة، قبضة من جميع الأرض، ففي أصل خلقة آدم الطين والتراب والرمل اليابس والليل والسبخة والسواد والبياض والأصفر والأحمر والأزرق وغير ذلك، ولما جاءت الذرية من بعد آدم ﷺ فكل خلقة ينزعها عرق من الأصل الأول آدم ﷺ فيأتي منها الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق والأسود، وهكذا، فهذا أصل الخلق، وبقيت ذرية آدم على التوحيد إلى زمن نوح ﷺ.

لعلنا نكتفي بهذا.